مركز سمت للدراسات
SMT Studies Center

يوم التأسيس..
الأمم العريقة تحتفي بعمقها التاريخي وإرثها الحضاري

فبراير 2022

قراءة خاصة 247

من لا يهتم بالماضي ويكوِّن فكرة عنه لا يستطيع أن يبني المستقبل. تلخص هذه الجملة أهمية وضرورة معرفة التاريخ، كقوة دافعة رافعة في المضي قُدمًا نحو تحقيق الإنجازات، فلا مستقبل لمن لا تاريخ له. وانطلاقًا من تلك الحقيقة، اهتمت المملكة العربية السعودية بإبراز تاريخها بفخر وإعجاب، فتعزيز الشعور الوطني بالولاء والانتماء، ومعرفة المواطنين لتاريخ بلادهم من أهم ركائز الدول والإمبراطوريات. باتت الحاجة ملحة إلى إعادة قراءة وكتابة التاريخ السعودي، واستلهام الهمم بتاريخ الأمجاد والبطولات الخالدة للوطن.

من هنا، أصدر خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، أمرًا ملكيًا بتحديد ٢٢ فبراير من كل عام، يومًا لذكرى تأسيس الدولة السعودية، باسم (يوم التأسيس)، ويصبح إجازة رسمية، وذلك اعتزازًا بالجذور الراسخة للدولة، وارتباط مواطنيها الوثيق بقادتها منذ الإمام محمد بن سعود. وأوضح الأمر الملكي: "بما أن منتصف عام ١١٣٩هـ، الموافق لشهر فبراير من عام ١٧٢٧م، هو بدء عهد الإمام محمد بن سعود وتأسيسه للدولة السعودية الأولى، أمرنا بأن يكون يوم ٢٢ فبراير من كل عام يومًا لذكرى تأسيس الدولة السعودية، باسم (يوم التأسيس)، ويصبح إجازة رسمية".

الدرعية.. المدينة الدولة

في ذكرى التأسيس الأول لبلاد تباينت وتعددت آراء المؤرخين لسبر أغوارها، وسر صمودها طوال ثلاثة قرون وإلى اليوم. البداية كانت من مدينة صغيرة نشأت وسط الجزيرة العربية في اليمامة أو العارض تدعى "الدرعية"، شأنها شأن مدن وبلدات متناثرة على ذات الوادي.

شكلت كل واحدة منها كيانًا مستقلاً صغيرًا تحكم أراضيها وتمارس السيادة الكاملة عليها، وتحاول كل إمارة التوسع على حساب الأخرى. كان الدرس الذي تعلمته الدرعية وحكامها أن القوة وحدها ليست هي التي تؤسس الدول وتحقق الاستقرار سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديا.

أدركت المدينة الصغيرة أن هناك عوامل كثيرة تساهم مجتمعة في إنشاء الدولة واستمرار وجودها، على رأسها كاريزما الحكم، وقوة الارتباط بالمكان، والاستقلالية التامة عن الآخر.

مع اكتمال العوامل، ظهرت "دولة الدرعية"، التي أسسها الجد الثاني عشر للملك عبدالعزيز، الأمير مانع المريدي في عام ٨٥٠هـ - ١٤٤٦م، بعد أن عاد الأمير مانع من شرق الجزيرة العربية إلى وسطها نجد، حيث كان الأجداد من قبيلة بني حنيفة المشهورة في التاريخ يسكنونها. عاد الأمير ومعه فكرة إنشاء دولة مركزية، وتحقق ذلك من خلال "المدينة الدولة"، أو "دولة الدرعية"، التي تملك معطيات وأسبابًا جغرافية لوقوعها على وادي حنيفة حيث تتوفر المياه، وتكون بيئة مناسبة للزراعة والاستقرار، إضافة إلى وجودها في قلب أحد أهم الطرق التجارية القديمة، وهو طريق الحج القديم كمحطة رئيسية في هذا الشريان.

واختصر المؤرخ راشد بن علي بن جريس، الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي وتوفي عام ١٨٨٠م، المشهد، إذ قال كلامًا في هذه الدولة مفاده: "إن فكرة إنشاء دولة عربية في جزيرة العرب واضحة للأمير مانع المريدي، ولابنه ربيعة، وحفيده موسى بن ربيعة، وابن الحفيد إبراهيم بن موسى بن ربيعة، الذي كان يسمَّى بأمير نجد وغيرها. ويذكر أنهم أمراء مستقلون، أي لا يتبعون لأحد، وأن في تفكير الأمير موسى بن ربيعة الاستقلال لجزيرة العرب، وفي تفكير والده، وجده، ووالد جده مانع، الاستقلال بمنطقة نجد وشرق الجزيرة العربية التي جاء منها الأمير مانع لتأسيس دولته في نجد في المنطقة التي كان يسكنها أجداده من قبيلة بني حنيفة".

كان الموقع الجغرافي لمدينة الدرعية استراتيجيًا بشكل يؤهلها لتكون عاصمة لدولة كبرى، فهي تقع على وادي حنيفة أحد أهم الأودية في نجد، بالإضافة إلى موقعها على أهم الطرق التجارية القديمة، الذي يأتي من جنوب شبه الجزيرة العربية مرورًا بنجران، ثم يتجه شمالاً إلى اليمامة، ثم الدرعية حيث يتجه إلى الشمال نحو دومة الجندل، وإلى الشرق نحو العراق، وإلى الغرب نحو الحجاز.

كذلك، كانت الدرعية نقطة التقاء وتجمع مهم في طريق الحاج القادم من فارس والعراق ووسط آسيا، إذ كان يواصل سيره عبر الدرعية إلى مكة المكرمة.

ومع تأسيس الأمير مانع المريدي للدرعية، ومن ثم مع أبنائه وأحفاده، تم تأمين هذا الطريق. وبتأسيس الإمام محمد بن سعود للدولة السعودية الأولى أصبح هذا الطريق من أبرز الطرق التي تمر بها قوافل التجارة والحج، نتيجة لسياسته بتأمين هذا الطريق والارتباط بعلاقات مع القبائل التي يمر من خلال مناطقها، والاتفاق معها على ضبط الأمن وتقديم الخدمة للمستفيدين منه.

وكانت العادة الموروثة والمعروفة في ذلك الوقت أن بلدات المنطقة كانت تختص بأسرة بعينها، لكن الأمر كان مختلفًا في الدرعية. كانت المدينة منذ نشأتها موئلاً للعرب الآخرين، وشهدت هجرات إليها من اليمن، وأقام فيها أو زارها كثيرون من مختلف مناطق الجزيرة.

ميلاد الدولة السعودية الأولى

كانت الدولة المدينة "الدرعية" تتوسع وتضيق بحسب الاستقرار السياسي فيها. وكلَّما مرت به من تجارب، تعلَّم منها الإمام محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، الذي ولد في الدرعية عام ١٠٩٠هـ - ١٦٧٩م. عمل الإمام وكافح في ميدان القيادة والتأسيس، وبفضل عبقريته انتقلت دولة المدينة في الدرعية، إلى مرحلة الدولة التي تعارف المؤرخون على تسميتها "الدولة السعودية الأولى"، التي شكل قيامها حدثًا كبيرًا على منطقة نجد، في منتصف عام ١١٣٩هـ، الموافق لشهر فبراير من عام ١٧٢٧م. تمكنت الدولة من بسط نفوذها على معظم مناطق جزيرة العرب، بل وصل الولاء للدولة إلى مناطق في كلٍّ من العراق والشام، فكانت بعض قبائلها تدفع الزكاة للدولة الجديدة. تعرضت الدولة للتهديد والمعارضة من قوى أجنبية ومحلية، كان ثمنها اغتيال الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، على يد أحد المأجورين في العاصمة الدرعية. ويعدُّ الإمام من أعظم الحكام الذين ظهروا في جزيرة

العرب من حيث المهارة العسكرية والإدارية. امتد نفوذ دولته إلى مناطق نجد والأحساء وعسير، وأجزاء من الحجاز، وساحل الخليج العربي، وتمكَّنت جيوشه من صد حملات ولاة الدولة العثمانية المعتدية، كما دخلت جيوشه مكة المكرمة دون إراقة دماء عام ١٨٠٣م.

بعد الإمام عبدالعزيز، حكم ابنه الإمام سعود، الذي عُرِف بـ(سعود الكبير)، الذي واصل جهود أبيه في توسيع نفوذ الدولة، وترسيخ الإصلاحات، وكانت بعض القبائل في كلٍّ من العراق والشام، تدفع الزكاة لبلاده. أرعب توحيد الحجاز السلاطين العثمانيين، لتبدأ الحملات المعتدية لمد نفوذهم على الحرمين والقضاء على الدولة السعودية.

الإمام المؤسس محمد بن سعود

الإمام المؤسس محمد بن سعود بن محمد آل مقرن (-١٦٩٧ ١٧٦٥م)، إمام ومؤسس الدولة السعودية الأولى، والحاكم الثاني من أسرة آل سعود، وأمير إمارة الدرعية الخامس عشر. كان في شبابه مراقبًا جيدًا لأوضاع الإمارة، وعمل إلى جانب والده في ترتيبها، وشارك في الدفاع عنها عندما غزاها سعدون بن محمد، زعيم بني خالد، فصمدت ودحر المعتدي.

وعرف عنه التدين وحب الخير والشجاعة والقدرة على التأثير، وكان مثل أسلافه الذين بنوا المدينة/ الدولة يريد توسيع دولته، وجاء توليه الحكم في ظروف استثنائية، فقد عانت الدرعية قبيل توليه ضعفًا وانقسامًا للنزاع الداخلي بين عمه مقرن بن محمد والأمير زيد بن مرخان، وكذلك هجوم الدرعية على العيينة ومقتل الأمير زيد بن مرخان، وأيضًا انتشار مرض الطاعون في الجزيرة، لكن الإمام تخطى كل ذلك ووحد الدرعية تحت حكمه، ونشر الاستقرار في منطقة العارض.

تولى الإمام محمد بن سعود الحكم بعد حملة العيينة منتصف عام ١١٣٩هـ/ فبراير ١٧٢٧م، ذلك أن أمير الدرعية زيد بن مرخان قرر القيام بحملة ضد العيينة، لكن حاكم العيينة محمد بن حمد بن معمر أدرك أنه لن يستطيع صد الحملة، فلجأ للحيلة، وأرسل لزيد أن يأتي هو وأفراد الأسرة الحاكمة وأعيان الدرعية لمنحهم ما يريدون، فسار زيد ومعه حوالي ٤٠ من الأمراء والأعيان ومنهم محمد بن سعود، ودخلوا العيينة، لكن ابن معمر دبر مكيدة لقتلهم فقُتل زيد ومعظم من كانوا معه. أمَّا محمد بن

سعود فلجأ وبعض من معه إلى أحد أبراج القصر متحصنين فيه، ثم نزل الإمام محمد بن سعود من البرج بأمان الجوهرة بنت عبدالله بن معمر وعاد إلى الدرعية حيث بويع إمامًا على الدولة الجديدة.

تزامنت ولايته مع ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي الذي كان داعية إلى دين الله، ومقاومًا للبدع والأضاليل، ومناديًا إلى إخلاص العبادة لله وحده، ونبذ كل ما أدخل على دين الله مما ليس فيه. وقد ساانده الإمام محمد بن سعود؛ إذ انطلق من مدينة الدرعية والتقى الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتوافق الاثنان واتفقا على إقامة دولة تقيم شرع الله بعد ميثاق الدرعية.

توفي الإمام محمد بن سعود في عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، وكان للإمام أيادٍ بيضاء وجهود كبيرة خلال فترة حكمه التي تصل إلى نحو ٤٠ عامًا. ففي عهده بني سور الدرعية عام ١٧٥٨م، بناه ابنه عبدالعزيز، وكان عبارة عن سورين متوازيين من الطين وبينهما حجارة لتدعيمه، وطوله ٧ أكيال بأبراج، وكان سبب بنائه بعد حملة أمير بني خالد عريعر بن دجين على الدرعية في السنة نفسها.

كما ترأس الإمام محمد بن سعود الجيش وقاده في الحروب ما بين عامي ١١٥٩هـ/ ١١٦٢هـ، وبعد توسع رقعة الدولة السعودية الأولى وانشغاله بإدارة شؤونها عهد إلى ابنه عبدالعزيز بقيادة الجيش.

من سياسته المالية أنه إذا وقع دين على الدولة أعلن للعامة حاجة بيت المال؛ فيسارع من لديه الرغبة في إمداد بيت المال بالدعم عن طيبة نفس، كما كان يضع قواعد يسير عليها بيت المال من حيث الخراج مما جعل الدرعية تتبوأ مركزًا في نجد.

تآمر عثماني

بعد وفاة الإمام سعود بن عبدالعزيز، تولَّى ابنه عبدالله، الذي دخل مع العثمانيين المعتدين في حروب امتدت ٧ سنوات. أبدى السعوديون صمودًا وبسالة للتصدي لتلك الحملات، ولم يجد ولاة العثمانيين حلاً إلا بفرض حصار على الدرعية.

فرض إبراهيم باشا حصارًا على الدرعية لأكثر من ستة أشهر، دارت خلالها معارك عنيفة بين الجانبين. كان للحصار دور حاسم في الإخلال بموازين القوى، وانتهى الأمر إلى استسلام الإمام عبدالله بن سعود عام ١٢٣٣هـ - ١٨١٨م، ليؤخذ إلى مصر، ويُبعث إلى عاصمة الدولة العثمانية (الآستانة). وهناك حوكم محاكمة صورية وأعدم بعدها بكل بشاعة دلالة على الحقد والكراهية واللاإنسانية.

صاحب هذه الأحداث قيام إبراهيم باشا، بأعمال وإجراءات لا إنسانية من قتل وإرهاب وإحراق وتدمير، ومصادرة للأموال. وبعد فترة من الفوضى ينجح الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، باستعادة الرياض بعد طرده القوات العثمانية المعتدية عام ١٢٤٠هـ - ١٨٢٤م، ويؤسس الدولة السعودية الثانية، التي انتهت بخروج الإمام عبدالرحمن بن فيصل، من الرياض عام ١٣٠٩هـ - ١٨٩١م، ليتمكن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن، عام ١٣١٩ه - ١٩٠٢م، من استعادة الرياض، وإعلان قيام المملكة العربية السعودية، ووضع المؤسس الثالث أركان دولة عصرية، شهدت تطورًا مرحليًا في مختلف المجالات في عهده، وفي عهد أبنائه.

يوم التأسيس واليوم الوطني

إن إعلان المملكة يوم ٢٢ فبراير من كل عام، يومًا باسم (يوم التأسيس) يضع تأريخًا سياسيًا دقيقًا لتأسيس الدولة السعودية الأولى على يد الإمام محمد بن سعود. وتنضم تلك المناسبة الغالية إلى التقويم الوطني، لكنها تطرح تساؤلاً عند البعض عن الفارق بينها وبين اليوم الوطني.

يوم التأسيس ٢٢ فبراير هو يوم استذكار العمق التاريخي للمملكة العربية السعودية وهو التعريف ببداية الدولة السعودية الأولى، التي تأسست على يد الإمام محمد بن سعود؛ لذا لا يراد منه أن يتم استبدال اليوم الوطني السعودي الذي هو ٢٣ سبتمبر، وفيه توحَّدت المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز آل سعود.

الاحتفال بهذه المناسبة هو استذكار لامتداد الدولة السعودية لأكثر من ثلاثة قرون، فيوم التأسيس يوم مميز يذكر بيوم الدرعية لبنة الأساس ونواة الدولة. كما يرمز إلى الإرث الحضاري والموروث الثقافي المستمر للحضارة السعودية المتميزة والمتجذرة والضاربة في عمق التاريخ. الاحتفاء بالمناسبة تأكيد على الأصالة، والعمق التاريخي، والجذور الراسخة، والقيم الثابتة، وعراقة الأسرة الحاكمة ومتانتها.

إن يوم التأسيس هو تأكيد على هذه العراقة، وهذا العمق؛ كيف استطاع الإمام محمد بن سعود أن يبدأ الدولة السعودية الأولى، كيف استطاع أن يوحد أجزاء الجزيرة المترامية الأطراف، كيف استطاع أن يكثف الجهود السياسية وزاد من قوة الدولة ونفوذها، واستطاع اقتصاديًا أن يوثق العلاقات بين البادية والحاضرة، وأن يؤمن طرق الحج والتجارة، وأصبحت الدولة بها مزيج من الحضارات المتنوعة مما زاد من اتساعها وتجانسها الاجتماعي.

لم تؤسس الأسرة المالكة الدولة السعودية على أساس قبلي أو عائلي أو إقليمي، بل على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية. وأبرز ما يميز تلك الفترة تأييدها لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. كل هذه المفاهيم والقيم تكمن في يوم التأسيس، عمقنا التاريخي، وتعزيز الانتماء، والشعور بالفخر.

"يوم بدينا"

أطلقت الهوية البصرية ليوم التأسيس تحت شعار "يوم بدينا" الذي تحمل معانيَ جوهريةً تاريخيةً متنوعةً ومرتبطةً بأمجاد وبطولات وعراقة الدولة السعودية؛ إذ يظهر في منتصف الشعار أيقونة "رجل يحمل راية" في إشارة إلى بطولات رجال المجتمع السعودي والتفافه حول الراية التي حماها ورفعها ودافع عنها بالغالي والنفيس.

ويحيط بأيقونة الهوية أربعة رموز هي: التمر الذي يدل على النماء والحياة والكرم، والمجلس الذي يعبّر عن الوحدة والتناغم الثقافي المجتمعي، والخيل العربي، وهو العنصر الذي يعرض فروسية وبطولة أمراء وشجعان الدولة، والسوق، في إشارة إلى الحراك الاقتصادي والتنوع والانفتاح على العالم.

وكُتبت عبارة "يوم التأسيس - ١٧٢٧م" بخط مستلهم من مخطوطات عديدة وثّقَت تاريخ الدولة السعودية الأولى لتكون الرسالة الشاملة للشعار، مرتبطةً بالقيم التي تمثل الثقافة السعودية المشتركة، وموصلةً لمعاني الفخر والحماس والأصالة والترابط، ومرتبطة بالضيافة والكرم والمعرفة والعلوم.

دلالات الاحتفال بيوم التأسيس

في الاحتفالات السنوية بيوم التأسيس يجب أن نتذكر تضحيات الآباء والأجداد، وما بذلوه من جهد وعناء طوال ثلاثة قرون حتى تمكنوا من بناء وطن أغر يمتد تاريخه من ١٧٢٧م إلى ما شاء الله تعالى. ومزيد من الإيضاح، فإن ما يفصل بين الدولة السعودية الأولى والثانية سبعة أعوام، بينما قامت المملكة العربية السعودية الفتية بعد عشرة أعوام فقط من انتهاء الدولة السعودية الثانية.

ويتمثل في قيام المملكة العربية السعودية وحدة أبناء الجزيرة العربية في تاريخها الحديث بعد أن عانت منطقة شبه الجزيرة العربية لعقود طويلة كثيرًا من ويلات الفرقة، والتمزق، والتشرذم، وغياب الأمن. ويجيء الإعلان عن ذكرى يوم التأسيس تجسيدًا لقيمة رفيعة عند المجتمع السعودي تتمثل في اهتمامه بتاريخ الدولة التي تعدُّ امتدادًا أصيلاً لحاضرها ومستقبلها، وامتدادًا أصيلاً لحرص واهتمام قيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، وولي العهد الأمير محمد بن سلمان، بحتمية الحفاظ على التاريخ السعودي بخاصة، وتاريخ الجزيرة العربية بصورة عامة.

إن يوم التأسيس مناسبة وطنية تتطلب من كل مواطن أن يتوقف عندها، وأن يراجع تاريخ الوطن، وأن يلتقط من التاريخ الدروس والعبر، وأن يجدد الرغبة في مزيد من العمل والأداء الجيد بغية المساهمة بجهد وافر في عمليات البناء والتنمية.

يوم التأسيس.. تاريخ للمستقبل

الأمر الملكي بالاحتفال بيوم تأسيس الدولة السعودية الأولى، يحمل في طياته العديد من الرسائل، التي توضح للجميع طريقة تفكير قيادة المملكة في حاضرها ومستقبلها، دون التخلي عن ماضيها وتاريخها. ومن أهم الرسائل التي يمكن أن نخلص إليها:

- يوم التأسيس هو تأكيد على عراقة المملكة وإرثها التاريخي الكبير.
- لم تؤسس الأسرة المالكة الدولة السعودية على أساس قبلي أو عائلي أو إقليمي.
- الاحتفال بيوم التأسيس يعزز الانتماء والشعور بالفخر.
- تعزيز الشعور الوطني بالولاء والانتماء من أهم ركائز الدول والإمبراطوريات.
- الاهتمام بالماضي يساعد في فهم الحاضر وصياغة المستقبل.
- التاريخ السعودي يمتلئ بالإنجازات والبطولات.
- باتت الحاجة ملحة إلى إعادة قراءة وكتابة التاريخ السعودي.

المراجع

١ - بأمر ملكي.. ٢٢ فبراير إجازة رسمية بالسعودية بمناسبة "يوم التأسيس" - العربية - https://ara.tv/zq3gw.

٢ - يوم التأسيس عمق تاريخي ووطني - الوطن - https://bit.ly/3rZtNNB.

٣ - محمد بن سعود بن محمد آل مقرن، مؤسس الدولة السعودية الأولى - موسوعة عريق - https://bit.ly/3GX1Hql.

٤ - إجازة رسمية.. لماذا اختار الملك سلمان ٢٢ فبراير يومًا لذكرى تأسيس الدولة السعودية؟ - CNN بالعربية - https://cnn.it/3uKgEKf.

٥ - السعودية... رحلة ٣٠٠ عام من التأسيس إلى التحديث - الشرق الأوسط - https://bit.ly/3J8qSbe.

٦ - هل "التأسيس" ٢٢ فبراير بديلاً عن اليوم الوطني ٢٣ سبتمبر؟.. أستاذة التاريخ السعودي تجيب - سبق - https://bit.ly/3sjpgoa.

٧ - الوطن السعودي الكبير في ٢٢ فبراير - الاقتصادية - https://bit.ly/3LwBGl8.

٨ - السعودية.. إطلاق الهوية البصرية ليوم التأسيس - العربية - https://ara.tv/gks45.

مركز سمت للدراسات

SMT Studies Center